العروبة فى عالم متغير *

الدكتورعليّ الدين هلال **

أود أولاً أن أشكر معهد البحوث والدراسات العربية على تشريفى بدعوتىَ لالقاء هذه المحاضرة ولمديره الأستاذ الدكتور أحمد يوسف الذى أدرك أن فكره وخياله سوف ينعكسان على أعمال المعهد وأنشطته .

عندما فكرت فى موضوع هذه المحاضرة ، حكمتنى عدة اعتبارات أولها اعتبار الملاءمة العامة بحيث يكون الموضوع محل اهتمام ومتابعة من الرأى العام، وثانيها الأهمية أى تناوله لقضية هامة تمس بلادنا العربية وتؤثر على مستقبلها . وثالثها المستقبلية بمعنى أن يتعامل ليس فقط مع معطيات الحاضر وقيوده وضوابطه ، وإنما يعرض أيضاً لاحتمالات المستقبل ومساراته .

فى إطار هذه الاعتبارات ، لم يكن من الممكن أن يخرج الموضوع عن نطاق التحولات العميقة التى يشهدها وطننا ومنطقتنا ، ولا عن الجدل الفكرى والسياسى الذى تزخر به الصحافة العربية – منذ توقيع إعلان المبادئ الفلسطينى – الاسرائيلى حول مستقبل النظام العربى، والعلاقات العربية – العربية ، ومآل القومية العربية ، والأمن القومى العربى .

---

* محاضـرة افتتاح المنتدى الفكرى لمعهـد البحوث والدراسات العربية للعام الأكاديمى ١٩٩٣ / ١٩٩٤ ، ألقيت يوم ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٣ .

** أستاذ العلوم السياسية وعميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة .

(*مجلة البحوث والدراسات العربية ، مج ٢٢ ، يوليو / تموز ١٩٩٤ – ص ص ٣١١ – ٣٢١*) .

ومع تعدد المسميات ، واختلاف نقاط التركيز التى يشير إليها كل من هذه الموضوعات فإن المساحة الفكرية التى تشغلها تبدو لى متقاربة ، والهواجس التى تنطلق منها أو تعبر عنها واحدة . فكلها - مع اختلاف المسميات وتنوع نقاط التركيز - تبحث فى مستقبل العرب كشعوب وكأمة ، كمجتمعات وكدول .

واخترت لهذا الحديث أن انطلق من مفهوم العروبة باعتباره المفهوم المركزى الذى تنبثق عنه كل الأفكار والمسميات الأخرى .

ومن نافلة القول أنه لا يمكن دراسة مفهوم العروبة فى عزلة عن سياقه المجتمعى الداخلى ، أو عن إطاره الاقليمى والدولى .

فعلم اجتماع المعرفة يعلمنا أن المفاهيم والأفكار تنشأ وتتطور محكومة بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بها . وأن ذيوع فكرة ما فى مرحلة تاريخية معينة لا يرتبط بالصدق الداخلى للفكرة أو سلامتها النظرية ، بقدر ما يكون بسبب استجابتها لمتطلبات البشر فى لحظة تاريخية معينة .

والدراسة الكلاسيكية لعالم النفس الاجتماعى ايريك فروم بعنوان «الهروب من الحرية» أوضحت بجلاء أن النازية بدت اختياراً ممكنا لأعداد كبيرة من الألمان فى ظروف الهزيمة العسكرية ، واستقطاع الأراضى، وفرض التعويضات، والاذلال النفسى الذى تعرضت له ألمانيا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، كما توضح البحوث التى عالجت أسباب نشوء الحركات الاجتماعية فى مجتمعات مختلفة نفس النتيجة .

وبنفس المنطق فإن العروبة كفكرة وانتماء ، وكشعور ووجدان، لا يمكن التعامل معها خارج سياقها التاريخى الاقليمى والدولى ، ومستقبلها لا ينفصل عما يحدث فى عالمنا المعاصر منذ السنوات الأخيرة فى حقبة الثمانينات والتى يمكن أن نوجزها عالميا فى : نهاية الحرب الباردة ، ثورات ١٩٨٩ فى أوروبا الشرقية ، توحيد ألمانيا ، إنهيار الإتحاد السوفييتى . واقليمياً فى : الغزو العراقى للكويت ، فحرب الخليج الثانية ، فمؤتمر مدريد وما فتح الباب له من مفاوضات ثنائية وجماعية ، ووصولاً إلى إعلان المبادئ الفلسطينى - الاسرائيلى .

تتسم هذه التطورات بسرعة الايقاع من ناحية ، وسيولة المواقف من ناحية ثانية ، وعمق التحولات التى تحدثها فى البيئة الاقليمية والدولية من ناحية ثالثة . وهذا بالضبط هو ما يثير الجدل والخلاف ، ويوجد الهواجس والمخاوف .

من هذه المخاوف ما يتردد عن نوبان الهوية العربية فى سياقات أكبر كالإطار الإسلامى أو الإطار الشرق أوسطى . يتردد النوع الأول من المخاوف منذ منتصف السبعينات ومع تصاعد وزن التيارات الإسلامية السياسية وطرح بعضها لمفاهيم معينة بخصوص الهوية . ويتردد النوع الثانى مع توقيع إعلان المبادئ الفلسطينى – الاسرائيلى وما تضمنه فى ملحقه الثالث عن التعاون الاقتصادى بين الطرفين ، وملحقه الرابع عن التنمية الاقليمية .

يزيد من هذه المخاوف والهواجس الشعور بأننا على أبواب عالم جديد ، بل وعصر جديد، وأن التحولات الحادثة من حولنا تعيد تشكيل النظام الدولى، ليس فقط فى أبعاده السياسية المرتبطة بتوازن القوى والعلاقات الاستراتيجية ، وإنما بالأساس الموضوعى لمفهوم القوة وعناصرها وذلك تحت وطأة معاول التطورات العلمية والتكنولوچية التى تجتاح العالم المتقدم وتعيد رسم صورة الحياة وعلاقات الانتاج على أسس جديدة . لعل من أبرز نتائج هذه التطورات تبلور عملية «العولمة» أو الاتجاة إلىَ العالمية والكونية بما يطرحه من آثار متنوعة عن إعادة تعريف العملية الانتاجية ومفهوم الدولة والسيادة ، ودور الوحدات عابرة الحدود الوطنية وعالمية النشاط .

فى إطار تلك التحولات العميقة ، تبدو صورة العرب ملتبسة ومشوشة ، وباليقين فإنهم يدخلون هذا العالم الجديد، ليسوا كمجموعة واحدة ، بل يدخلونه من أبواب مختلفة، وفى مواقع متباينة فأين العروبة من هذا كله ؟ وما معنى العروبة فى هذا السياق ؟ بل وماذا يبقى من العروبة فى المستقبل ؟

عندما تثار أسئلة أساسية مثل هذه ، فإنه لابد من العودة إلى الأصول ، وإلى الأساسيات والبديهيات لإعادة فحصها وتحليل مكوناتها .

دعونا نتفق على أن العروبة ليست مذهباً سياسيا أو إجتماعيا مثل الايديولوچيات المعاصرة كالليبرالية والماركسية، بل هى فى الأساس شعور وانتماء، وجدان وهوية . هى إدراك بالذات نشأ وتطور عبر مئات السنين، وشارك فى صنعه عدد من العوامل

المادية والمعنوية. وعبر هذا التطور التاريخى اصطدم هذا الإدراك بإدراكات أخرى سابقة عليه أو لاحقـــة تفاعل مع بعض معطيـــاتها، وتعايش معها، وتصادم مع بعضها الآخر .

إن جوهر مفهوم الهوية هو إدراك الإنسان كفرد بالانتماء إلى جماعة بشرية يرتبط بها . بهذا المعنى فإن الهوية لها معنى مزدوج : هى شعور فردى بالانتماء إلى جماعة . وهى أداة وضع الحدود بين الجماعات البشرية بعضها البعض . على المستوى الأول هى أداة التمييز بين «نحن» و «الغير» ، وعلى المستوى الثانى هى أداة التمييز بين حدود جماعة بشرية وأخرى .

هذا المعنى الأساسي للهوية ترد عليه مجموعة من التحفظات والضوابط

أول هذه الضوابط أن إدراك أى إنسان لنفسه يتضمن عدداً من الهويات والانتماءات ذات الدوائر المختلفة والمستويات والمضامين المتنوعة . ففى أحد الجوانب ينتمى الإنسان إلى أسرة صغيرة ، فأســـرة ممتـــدة ، فإلى أحد الفخوذ أو البطـــون أو العشائر أو القبائل فالى جماعة إثنية أو سلالية أو لغوية . وفى جانب آخر ينتمى الإنسان إلى قرية أو حى ، فمدينة ، فمحافظة أو لواء أو قضاء ، فوطن . وفى جانب ثالث ينتمى إلى مهنة لها أعرافها وتقاليدها ، وقد يرث الإنسان مهنته عبر الأب والجد ، وفى جانب رابع ينتمى الإنسان إلى دين ، وربما إلى مذهب بعينه فى إطار هذا الدين . ثم إلى جانب كل ما تقدم فالانسان باعتباره انسانا له انتماء ما الى الإنسانية فى شمولها وينطبق ذلك بالذات على الفئات المثقفة والأكثر تعليما ، وخصوصاً فى زمن التداخل الثقافى والحضارى الذى نعيشه .

وثاني هذه الضوابط يتصـــل بالدوائر المتعددة للهـــوية ، وتقاطع الهويات والانتماءات وتداخلها. إن إدراك هذه الحقيقة هو الذى يسمح لنا بتجاوز الثنائيات الزائفة بين الوطنية والقومية ، وبين القومية والإنسانية، وبين الدين والقومية . مثل هذه الثنائيات تنطلق من فهم خاطئ لمعنى الهوية والانتماء من ناحية وللطبيعة الإنسانية من ناحية أخرى .

وثالث هذه الضوابط يتصل بالنظر إلى الهوية كمسألة تاريخية ، فالهوية ليست مفهوماً عرقياً ولا هى سمة أزلية سرمدية ، وإنما جزء من وعى الإنسان بذاته ومحيطه

ومن ادراكه لنفسه ومجتمعه ، ومن ثم فهى بحكم طبيعتها متغيرة ومتحولة . فغير صحيح أن هوية أى شعب أو أمة ثابتة أو جامدة عبر التاريخ بل ، هى تتحول فى محتواها ومضمونها ، كما تتغير العلاقة بين مكوناتها وعناصرها ، وعبر مسار التاريخ يمكن أن يتغير الطابع العام للهوية ، ويكفى أن نتأمل فى هوية الإنسان المصرى وتطورها من مصر الفرعونية ، فمصر القبطية ، فمصر الإسلامية ، فمصر الحديثة ، وكيف انتقلت بعض عناصر الهوية من مرحلة لأخرى ، فى نفس الوقت الذى تغير فيها الطابع العام للهوية .

ومؤدى ما تقدم أن الهوية يعاد تعريفها من وقت لآخر فمفهوم الوطنية المصرية مثلاً تغير معناه ومضمونه وعلاقته بأشكال الانتماء الأخرى من حقبة إلى أخرى ، ففى سنوات ما بعد ثورة ١٩١٩ وبين الحربين غلب مفهوم الأمة المصرية ، ورغم إدراك جزء من النخبة المصرية للبعد العربى فقد كان بعدا هامشيا بمعنى أو بآخر .

وفى السنوات التى تلت ثورة ١٩٥٢ أصبح لمفهوم القومية العربية السيادة وبالذات بعد اعلان الجمهورية العربية المتحدة ، واعتبار الاسم الرسمى لمصر هو الإقليم الجنوبى . وتمت إعادة صياغة الكتب المدرسية بما يقلل من أهمية المراحل السابقة لتعريب مصر ، مما دفع مفكراً مصرياً هو الدكتور لويس عوض إلى نشر سلسلة مقالات فى الأهرام ينتقد فيها هذا الاتجاه موضحاً أن المقررات الدراسية الفرنسية تدرس عن التاريخ الفرعونى أكثر مما تتضمنه المقررات المصرية. وإلى جانب تغير علاقة الهوية المصرية بأشكال الانتماء الأخرى فإن مكونات هذه الهوية تغيرت أيضاً كما تغيرت أهدافها .

وبنفس المنطق فإن مفهوم العروبة قد تطور من مرحلة إلى أخرى -

ففى بداية القرن العشرين تبنى كثير من القائلين بالعروبة مفهوماً عرقياً ، وكان النطاق الجغرافى لها يرتبط بشبه الجزيرة العربية والمشرق العربى ، وظلت مصر ومنطقة المغرب العربى خارج إطار المفهوم . لذلك ، لم يكن غريباً عندما انعقد المؤتمر القومى العربى الأول فى باريس فى عام ١٩١٣ ألا يتحمس أعضائه لمشاركة بعض المصريين الذين عرفوا باعتقاده ورغبوا فى حضور مداولاته .

فى حوالى منتصف القرن تطورت العروبة من دعوة ثقافية وفكرية إلى حركة سياسية تمثلت فى قيام عدد من الأحزاب القومية مثل حزب البعث العربى الاشتراكى

وحركة القوميين العرب، ووصف هذه الأحزاب بالقومية لا يشير إلى مضمون فكرها السياسى وحسب وإنما إلى سعيها لإقامة فروع وتنظيمات فى أكثر من دولة عربية . فى المرحلة نفسها أصبح التركيز فى تعريف العروبة على العناصـــر الثقافية والتاريخيـة والمعنوية .

ومع نهاية القرن تبدو العروبة محاصرة ومقيدة ، وفى موقف الدفاع عن الذات بسبب التغيرات العميقة التى حدثت فى البيئة المحيطة بها . فمن الداخل ينمو الولاء للدولة الوطنية ، وتنهض المشاعر السلالية والإثنية، ومن الخارج بأطر دينية تتجاوز العروبة وتتخطاها ، وبأحاديث عن ثقافة عالمية ينخرط فيها الجميع . وفرض هذا الوضع تحديات لم يعد من الممكن تجاهلها أو التظاهر بعدم وجودها .

لم تظهر هذه المشاكل والتحديات بين يوم وليلة ، وجذور بعضها يعود إلى سنوات طويلة مضت ولكن آثارها التراكمية برزت للعيان مع نهاية الثمانينات .

تمثل أول تحول موضوعى فى الحصول على الاستقلال ، ذلك أن استقلال الدول العربية أعاد تعريف الساحة السياسية للأحزاب . ومع أن فكرة العروبة والقومية استمرت كأحد معطيات الموقف فى داخل كل دولة ، إلا أن الصراع السياسى والتحالفات تمت أساساً لأسباب داخلية وفى إطار تلك الساحة بعينها .

ومع أن الاستقلال أعاد رسم حدود الملعب السياسى فإن بروز تداعيات ذلك استغرق سنوات ، وذلك لسببين أولهما : أن الآثار المرتبطة بالهوية والانتماء تتطلب فترة أطول كى تعبر عن نفسها . وثانيهما مناخ الزخم العربى الذى ارتبط بالهزيمة فى عام ١٩٤٨ ، فسلسلة الانقلابات العسكرية فى سوريا ومصر ، فتبلور الحركة القومية العربية بقيادة جمال عبد الناصر .

ومع أن الحركة القومية تعرضت لانتكاسات مختلفة ولم يقدر لأى من محاولات الوحدة أن تستمر أو تزدهر (الوحدة المصرية – السورية ، الإتحاد العربى ، التكامل المصرى السورى العراقى) فقد احتفظت الحركة بتماسكها الظاهرى لوجود القيادة الناصرية – والمعنى الذى مثلته فى الحياة السياسية العربية. فقد مثلت هذه القيادة رمزاً يلتف حوله العرب متفقين ومختلفين ، مؤيدين ومعارضين ولكنهم فى نهاية الأمر

مرتبطون بالرمز ويتخذون مواقفهم إزاء مجموعة من الموضوعات التى شكلت جدول الأعمال المشترك للعقل العربى. وفى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ فقدت العروبة هذا الرمز وباختفائه ظهر للعيان أن الوزن الرمزى والمعنوى لها – بسبب وجود جمال عبد الناصر – فاق بكثير انجازها الفعلى فى مجال تحقيق التنسيق أو التكامل أو الوحدة بين البلاد العربية . ومع غياب الرمز برزت تدريجياً عناصر التنوع وعدم التجانس والاختلافات فى الإطار العربى . .

برز أولاً منطق الدولة التى سعى حكامها لتحقيق المصالح الوطنية الخاصة بكل دولة دونما نظر إلى الاعتبارات العربية التى تتجاوز ذلك .

وارتبط بسيادة منطق الدولة تباين الاهتمامات السياسية من دولة لأخرى ومن منطقة عربية لأخرى . لم يعد هناك جدول أعمال عربى مشترك إلا على مستوى الشعارات والخطب ، أما فى الممارسة فقد سعت كل دولة بنشاط لتعظيم مصالحها الوطنية حسب رؤية نخبتها الحاكمة بغض النظر عن اتفاقها أو تناقضها مع أطراف عربية أخرى .

وبرزت ثانياً خبرة الأحزاب القومية عندما وصلت إلى الحكم فى عدد من الدول العربية وانتهاجها لسياسات وممارسات لا تختلف كثيراً عن تلك السائدة فى بلاد أخرى..

وبرزت ثالثاً تفاوتات الغنى والفقر وبالذات مع اتساع الفجوة بين «يسر الأغنياء» و«عسر الفقراء» ، وكان لذلك تداعياته السياسية والنفسية التى استغلتها بعض التيارات للتشكيك فى مفهوم العروبة .

وبرز رابعاً التغير فى الموقف السياسى والفكرى تجاه اسرائيل ، وبدء تطور سياسى تضمن اتفاقيات فض الاشتباك ، فاتفاقية كامب ديڤيد فمؤتمر مدريد ، فالمباحثات الثنائية ومتعددة الأطراف ، فالاتفاق الفلسطينى الاسرائيلى . وتنبع أهمية هذا التطور من مركزية القضية الفلسطينية فى العقل العربى وارتباطها بالعروبة . ففى كثير من الدول العربية ، ارتبطت النشاطات العربية المبكرة بالتطورات فى فلسطين مثل اللجان التى نشأت فى مصر فى أعقاب حادث البراق فى نهاية العشرينات ، ومؤتمر القدس فى بداية الثلاثينات ، وزيارة وفد عربى لامارات الخليج فى منتصف الثلاثينات .

العروبة فى الوجدان العربى ارتبطت بفلسطين ، ومثلت القضية الفلسطينية مسئولية مشتركة . والتطورات التى تشهدها الساحة الفلسطينية بعد توقيع اتفاق ١٣ أكتوبر ١٩٩٣ سوف يكون لها تداعيات تتجاوز الموضوعات الآنية والملحة المرتبطة ببناء سلطة الحكم الذاتى ، والمرحلة الانتقالية ومستقبل الأراضى المحتلة . فهى – أى هذه التطورات – تضعنا على بداية الطريق لإنهاء الصراع الذى طالما اعتبره العرب الصراع الأساسى فى المنطقة .

وبرز خامساً مزيد من التناقضات السياسية العربية – العربية . وإذا كان تعدد الخلافات العربية أحد سمات هذه المنطقة ، فإن الجديد هو استعداد النخب الحاكمة فى بعض الدول العربية للتحالف الصريح مع دول غير عربية – ضد طرف عربى فى صراعات اتسمت باستخدام القوة المسلحة .

وبرز سادساً منطق التجمعات الاقليمية التى ركزت على مجموعة من الدول العربية فى إطار جغرافى محدد . وليس فى قيام هذه التجمعات فى حد ذاتها ما يناهض مفهوم العروبة أو ما يخالف ميثاق جامعة الدول العربية ، ولكنها فى الممارسة أدت إلى وجود تكتلات فى داخل العمل العربى ، كما أن البعض استخدمها كمفهوم مناوئ للعروبة والإطار العربى .

وبرز سابعاً التوسع فى مفهوم العروبة وهو ما تمثل فى قبول جامعة الدول العربية لدولة جزر القمر فى عام ١٩٩٣ ، وهذا موضوع قديم جديد ، فالميثاق لا يتضمن تعريفاً لمفهوم الدولة التى ينطبق عليها وصف العربية ، ونوقش الموضوع عند انضمام الصومال بشأن اللغه المتداولة بين الصوماليين. والمشكلة أن أكثر من نصف السكان فى جزر القمر من غير ذوى الأصول العربية ، ولا يتحدثون العربية . ويترتب على هذا التوسع فى مفهوم العروبة اختلاطه بالإسلام ، وتمييع مضمونه ، وازدياد حجم التناقضات بين الدول التى تنتمى إليه .

وبرز أخيراً – وربما نتيجة لكل ما سبق – فكرة المرارة التى استخدمت لتبرير السلوك السياسى لدولة أو لنخبة حاكمة ، فاتفاقية كامب ديفيد على سبيل المثال بررها بعض المصريين بأنها انعكاس لمرارة الشعب المصرى إزاء صعوباته الاقتصادية فى

الوقت الذى ازداد فيه ثراء الآخرين . وفى عام ١٩٩٣ يفسر البعض الإعلان الفلسطينى – الاسرائيلى بأنه انعكس لمرارة الشعب الفلسطينى تجاه المواقف العربية. وهناك مرارة كويتية تصب فى اتجاه الأطراف التى أيدت الغزو العراقى لبلادهم ، ومرارة ليبية ، وأخرى عراقية بسبب الحصار الاقتصادى المفروض على البلدين .

فى هذا السياق توالت سلسلة الأحداث الدامية التى بدأت فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ بغزو العراق للكويت ، فحرب الخليج الثانية ، فالارتباطات الأمنية بين معظم دول مجلس التعاون الخليجى ودول غير عربية. صاحب ذلك تعثر محاولات التنسيق العربى، ففكرة الجيش الخليجى الموحد لم تلق قبولاً . وإعلان دمشق ظل متعثراً . والتجارة البينية العربية – مازالت نشاطاً هامشياً ، ومازال العرب بعد مرور ثلاثة أعوام أسرى المواقف السياسية التى تبلورت فى أغسطس ١٩٩٠ ، ولا نستطيع أن نفسر ذلك إلا بادراك أن هذه الأحداث كانت لحظة كاشفة وليست خالقة بمعنى أنها لحظة كشفت عن التناقضات العربية القائمة ، وعرتها ، وفضحتها . ولم تكن هى التى أوجدتها ابتداءً .

لقد كشفت هذه الأحداث عن اختلافات عميقة ليس فقط على مستوى النخب وإنما أيضاً على مستوى الجماهير . وعكست هذه الاختلافات تبايناً فى الرؤى والمصالح ، وعبرت عن مشاعر وأحاسيس ورواسب تراكمت فى النفوس طوال حقبتى السبعينات والثمانينات ، وربما من قبل ذلك .

أن الموقف الراهن يتطلب عملاً فكرياً لإعادة تعريف مضمون العروبة فى ظل المعطيات الراهنة . فعرب التسعينيات ليسوا عرب الخمسينيات باليقين ويتطلب إعادة تأسيس الفكرة القومية بما يستجيب لاحتياجات المستقبل ومتطلباته ، فالمشكلة لا تكمن فى جوهر مفهوم العروبة أو مفهوم القومية فالحقيقة التى يشهدها عالم اليوم هو انبعاث القوميات فى دول شرق أروبا ، وفى الدول الوريثة للاتحاد السوفييتى ، وللاتحاد اليوغسلافى .

وبعيداً عن العواطف والمشاعر فإن الإتجاه إلى التكتلات الاقتصادية الأوسع هو أحد معالم اليوم . ومن ثم فإن الوضع العربى الراهن هو أمر لا يمكن القبول به أو استمراره وهو الطريق الأكيد إلى مزيد من الانتكاسات والهزائم .

وبنفس الروح فإن استدعاء روح عصر الخمسينات والستينات هو أمر مستحيل . وهذا الوضع يتطلب التفكير بصوت عال فى القضايا الجديدة المطروحة علينا دون وجل أو خوف .

فإذا أخذنا القضية المطروحة اليوم تحت عنوان **العروبة في مواجهة الشرق أوسطية** سوف نكتشف على الفور زيف هذه المفارقة وعدم التساوى بين طرفيها ، مما يجعل المقارنة فى الأساس خاطئة وخادعة . العروبة كما قلنا هى شعور وانتماء وهى أحد مستويات الهوية التى يتعامل معها الإنسان ، وهى بهذا المعنى جوهرها ثقافى قبل أن يكون سياسياً . وهى أمر يتصل بالمجتمع قبل أن يمس الدولة. الشرق أوسطية من الناحية الأخرى هى مجموعة ترتيبات استراتيجية واقتصادية وسياسية تتصل بالأمن الاقليمى أو المياه أو التعاون الاقتصادى أو حماية البيئة ، ويختلف المشاركون فى كل ترتيب وفقاً لمدى ارتباطها بهذا الموضوع. ويترتب على ذلك أنه بينما تتسم المؤسسات العربية بطابع التراكمية فى العضوية ، فإن الترتيبات المتعلقة بالشرق الأوسط ذات عضويات مختلفة . أضف إلى ذلك الفارق الجوهرى بين العروبة كمفهوم ثقافى وشعور بالانتماء وترتيبات مؤسسية وتنظيمية تتم بين الدول، ولا أريد فى هذا المقام أن أكرر النتائج التى عرضت لها فى بحوث سابقة والخاصة بأن مفهوم الشرق الأوسط هو تعبير سياسى استراتيجى ، ولا يشير إلى منطقة جغرافية محددة ، وأنه يصف المنطقة من خارجها وفى علاقتها بالغير ، وأنه لا يوجد اتفاق على ماهية الدول التى تمثل هذه المنطقة .

بهذا التصور فإن العروبة والشرق أوسطية ليستا صنوان ولا ينبغى المقارنة بينهما.

التحدى الحقيقى فيما أتصور ينبع من الداخل ، ومن قدرة الفكر العربى على نقد الذات ، وعلى معرفة جوانب القصور فى بنية الفكرة القومية وفى إلتماس السبل لتطويرها فى سياق عالم متغير .

ان هذا المنهج يتطلب أولاً الصراحة فى الاعتراف بالتنوعات التاريخية والجيوبوليتكية والاقتصادية الموجودة ، وكذا الإقرار بالرواسب التاريخية والتناقضات القائمة والكامنة .

ويتطلب ثانيا الدراسة المتعمقة لخبرات الآخرين والتعلم من دروسهم وبالذات فى كيفية تجاوز الماضى ، فنحن كثيراً ما نركز فى مجال تفسير الخلافات العربية – العربية على رواسب الماضى وخلافاته ، ولكن عندما نتأمل التاريخ الأوروبى مثلا فسوف يتضح أن حجم المذابح والحروب الاهلية والحروب بين الدول التى شهدتها تلك القارة تتجاوز بكثير ما حدث فى تاريخنا ، فلماذا استطاعت أوروبا مثلا تجاوز ماضيها بينما مانزال نحن أسرى لسلبياته .

والماضى ينبغى فهمه كمسألة مستقبلية وأن نعتبر أحداثه فى إطار شكل المستقبل الذى نرغبه ، والذى يتبلور من حولنا. والمتحدث من المدركين بأن المستقبل يتجه فى بعض جوانبه إلى مسارات تختلف نوعياً عما عرفه العالم من قبل ، ولكن ذلك لا يعنى إسقاط الماضى ، وإنما التعامل معه بمنظور مستقبلى .

ويتطلب ثالثاً إدراك أن أى نظام اقليمى هو انعكاس لعناصره ووحداته ، والفكرة العربية أو النظام العربى لن يكون لأيهما مستقبل خارج مستقبل أطرافه ووحداته الفاعلة.

ويتطلب رابعا التعامل مع مستقبل يتشكل حتى الآن بعيداً عنا . مستقبل لا نملك مفاتيح تشكيله ولا ندرى بعد كيف نتعامل معه .

وهناك أسئلة لا توجد اجابات حاسمة أو واضحة عليها ، فهل نهجر مثلا كل ما نملكه بحثاً عن عالم الغد رغم ما يمثله ذلك من إثارة وجاذبية ، هل نطور تدريجيا ما هو قائم أم نندفع نحو المجهول بحثاً عن الجديد. وهل باسم المعطيات الجديدة يتم إسقاط كل المحرمات السياسية والنفسية .

وأقول إن العروبة ليست رداءً سياسياً بمقدور أى منا أن يغيره أو يستبدله ، فهى سمة تكوينية صميمة للإنسان والمجتمع . سمة ترتبط بتفاعل مجموعة من المقومات عبر مئات السنين وتختلف تعبيراتها السياسية والأشكال التنظيمية المعبرة عنها من مرحلة لأخرى ، ولاشك أن العروبة تواجه امتحاناً صعباً وتحديات جسيمة مما يفرض على المفكرين العرب إعمال العقل واطلاق الخيال استنهاضا لروح الأمة .

والطريق إلى ذلك عقول باردة ، وقلوب دافئة ، وعيون يقظة .

★★★

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF THE ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية